

للدكتور حسن عبد العزيز أحمد
أستاذ مساعد - قسم الجغرافيا - جامعة الرياض

من هم الفينيقيون ؟

لم تكن معلوماتنا عن هذا الشعب العظيم . قبل الاكتشافات الأثرية التى اميط عنها اللثام فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى . سوى اخبار نتعرف عليها من كتابات أقوام آخرين مثل الاغريق والرومان وغيرهم من الشعوب الاخرى التى كانت لهم علاقات وصلات مع الفينيقيين .

ولما كان معظم انتاج الفينيقيين الأدبى قد اندثر ولم يبق الا أقل القليل فليس من المستغرب اذن أن تشوه صورة الفينيقيين الى حد كبير فى المصادر اليونانية وغيرها . وعلى سبيل المثال يصف المؤرخ اليونانى « بلوتارخ plutarch » الفينيقيين بالاستبداد والحقد . وفى القرن الثانى الميلادى نعتهم « أبيان Appian » اليونانى بأنهم قوم قساة جفاة فى حالة قوتهم . واذا ما انتابهم الضعف فهم أذلاء ويتصفون بالخنوع (١) . ومن بين الذين كتبوا عن الفينيقيين نجد بعض المنصفين مثل « بومبونيوس الاسبانى Pompnius » الذى وصف الفينيقيين فى القرن الأول الميلادى فقال :

« ان الفينيقيين سلالة ذكية ، متفوقون فى الحرب والسلم ، وبارعون فى الكتابة والأدب والفنون الاخرى والملاحة والمعارك الحربية وفى ادارة امبراطوريتهم » . [٢]

وحتى الآن لم نعثر على وثائق فينيقية مكتوبة توضح لنا علاقات الفينيقيين بالشعوب الأخرى مثل المصريين والآشوريين ، أو أن تتبين لنا أساليب الفينيقيين التجارية مع جيرانهم ورحلاتهم البحرية والمناطق التى وصلوا اليها ومنجزاتهم الفنية والصناعية .

وهكذا ينبغى علينا كباحثين أن نتعامل مع ما نقرؤه عن الفينيقيين فى المصادر المختلفة بشىء من الحذر .

لقد عاش الفينيقيون على الشريط الساحلى الشرقى للبحر الأبيض المتوسط والذى يمتد من طرطوس شمالا حتى جبل الكرمل جنوبا . ولهذه المنطقة أهمية جغرافية كبرى حيث تقع بين مهدين من مهود الحضارات القديمة ، فالى الجنوب تقع مصر والى الشرق تقع بلاد ما بين النهرين . وشغلت الرقعة التى عاش فيها الفينيقيون أجزاء من الهلال الخصيب وفلسطين وسوريا ولبنان . وتأثرت نتيجة هذا الموقع بالمؤثرات الثقافية من مصر وبلاد بابل .

ولقد أطلق الانجيل اسم الكنعانيين على السكان الذين كانوا يقطنون هذه الرقعة الساحلية التى شغلتها « فينيقيا » . وتاريخ وصول الفينيقيين الى تلك المنطقة غير معروف على وجه التحديد . ولكن الامر المؤكد ان هناك هجرات سامية من شبه الجزيرة العربية ومن منطقة الخليج العربي بالتحديد [٣] قد توالت صوب ساحل البحر الابيض المتوسط ، وقد تمت الهجرة السامية الأولى فى سنة **٢٣٥٠** ق.م تقريبا أى منذ أكثر من ثلاثة وأربعين قرنا ، وقد اتجهت هذه الهجرة صوب الشمال الى العراق وأسست دولة الأكاديين جنوبى العراق . أما الهجرة الرئيسية الثانية فتتمثل فى تدفق العموريين فى نهاية الالف الثالثة قبل الميلاد ، وفى نهاية العصر البرونزى اندفع الآراميون صوب بلاد الشام فيما يوصف بالهجرة السامية الرئيسية الثالثة . ومن المؤكد ان هناك هجرات سامية اخرى حدثت قبل الهجرتين الساميتين الاخيرتين كما تؤكد الادلة الاثرية .

وتشير رسائل تل العمارنة انه فى مستهل القرن الرابع عشر قبل الميلاد اطلق سكان كنعان على أنفسهم الاسم الاكادى « كيناهو Kinahu أو كيناو Kinahu أو كيناهنا Kinahna » [٤] . وتعنى كلمة « كنعان » فى اللغة العبرية « التاجر » وتنطبق هذه الصفة تماما على الفينيقيين . [٥]

وفى حديثنا عن الفينيقيين نتساءل من أين جاءت هذه التسمية التى اشتهر بها هذا الشعب الكنعانى حتى طغت على اسمه الأصلى ؟

نوجز الآراء التى قيلت بصدد تفسير هذه التسمية على النحو التالى :

١ — هناك رأى يرى ان الاغريق الذين كانت لهم صلة بالفينيقيين فى أواخر الألف الثانية قبل الميلاد هم الذين أطلقوا هذه التسمية . ويرد ذكر « Phoenix » فى أشعار هومير . ويبدو ان هذا الاسم يدل على اللون الأحمر الغامق أو البنى . ثم انتقلت التسمية الى شجرة النخيل Phoenix dactilifeva التى تتميز بثمارها الحمراء . وقد أطلق

الاغريق هذه التسمية على الكنعانيين لانهم بشر ذوو بشرة بنية .[٦]

٢ — يعتقد بعض الباحثين ان اسم الفينيقيين قد اشتق من صبغة حمراء أو أرجوانية تستخلص من محارات أو أسماك بحرية هي Murex Whelk والتى كانت تستخدم فى صبغ الأقمشة الجميلة التى اشتهر الفينيقيون بصبغها .[٧]

٣ — استخدم الرومان تسمية « بونى Poeni » للدلالة على القرطاجيين وهذه التسمية اشتقاق لاتينى من الاسم الاغريقى الاصلى Phoenix . وقد كان الرومان يفرقون بين « اليونيين » الغربيين و « الفينيقيين » الشرقيين رغم اعترافهم بوحدة أصلها .

٤ — ويرى عبد الحق فاضل ان اسم فينيقيا مشتق من اسم الفينيقيين ، وأن اسم الفينيقيين محور من « بنى كنعان » ويعلل ذلك بأن اللاتين كانوا يسمون الفينيقيين والقرطاجيين Punicus كما تشهد بذلك المعاجم والمأثورات وأن القرطاجيين كانوا يسمون أنفسهم « بنى كنعان » كما تصرح بذلك رخامه[٨] عثر عليها فى البرازيل ، ومكتوب عليها باللغة القرطاجية عام ١٢٥ ق.م ما ترجمته بالعربية :

« هنا نحن بنى كنعان من فرايم حملنا الحقارة ، أليس حراما أن نحصل هكذا » .

وقد أخذ اللاتين عن الاغريق صيغة التسمية Phoenices بالفاء ، ثم نتيجة الاحتكاك المباشر بالفينيقيين — بنى كنعان — وجدوا أن الأصوب أن تنطق بالباء لا الفاء فقالوا Punicus، Poenicus، Poeniceus، و Poeni

كيف كون الفينيقيون دولتهم ؟

تتميز سهول ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، حيث أقام الفينيقيون دولتهم ، بكثرة الكتل الجبلية المفرقة والتى تعوق استمرار الاتصال بين أجزائها ، وقد أدى ذلك الى قيام مجموعة من المدن كانت كل مدينة منها دولة قائمة بذاتها ، ويطلق على هذا النمط من الدول « الدولة المدينية » . وبطبيعة الحال كانت هذه الدول المدينية صغيرة وضعيفة عسكريا وغير مستقرة سياسيا وبمرور الزمن استطاعت بعض المدن القوية أن تفرض سيطرتها على المدن الأقل قوة حتى انتهى الأمر باتحادها .

ولما كانت فينيقيا تواجه البحر من الغرب وتواجه جبالا عالية من الشرق ، فقد اتجه سكانها نحو البحر يعيشون على أسماكه في بداية الامر ثم اتخذوه سبيلا للتجارة مع الأقطار المطلة عليه حتى برعوا في هذا المجال وساعدهم على ذلك أمور نذكر بعضا منها : ألفتهم للبحر الذى عاشوا على شواطئه ، ووفرة أخشاب الأرز على الجبال المجاورة لهم مما مكنهم من استخدامها فى صناعة السفن ، وكان لصفاء السماء أثر كبير فى استعانة الفينيقيين بالنجم القطبى فى اسفارهم .

وقد سعت المدن الفينيقية الى استغلال موارد بيئتها المحيطة بها ، واختلفت عما يسود فى مجتمعات الدول المجاورة فى انها (أى المدن الفينيقية) كانت مجتمعات حضرية اقتصاديا وسياسيا . وكانت جبلا Gubla (جبال الانجيل وجبيل الحديثة) أول مدينة تظهر في فينيقيا . وقد عرفت جبلا عند الاغريق باسم بيبلوس Byblos الذى اشتقت منه كلمة Bible « وتعنى كتابا » وذلك لأن مدينة بيبلوس كانت مركزا لأوراق البردى التى شاع استخدامها آنذاك فى الكتابة . (٩) وجدير بالذكر ان نشير الى أن مدينة بيبلوس هى المدينة الوحيدة التى لقيت اهتماما من علماء الأثار وحظيت بعدد من عمليات التنقيب . وقد ظهرت بعد بيبلوس مدن فينيقية أخرى مثل ارادوس (ارواد الحالية) ثم تلتها صور وصيدا .

علاقات الفينيقيين بجيرانهم :

تؤكد الادلة الأثرية التى عثر عليها وجود علاقات تجارية بين الفينيقيين وجيرانهم ، فقد ثبت اتصال (جبلا) بمصر القديمة قبل ان يتوحد الوجهان القبلى والبحرى في مملكة واحدة ، حيث كان الملوك المحليون يرسلون بعثاتهم الى لبنان للحصول على خشب الإرز والتنوب الذى استخدم فى بناء السفن والمعابد والقصور ، وقد وجدت أقدم بقايا شجرالأرز فى هرم بناه سنفرو منذ أكثر من ٤٥٧٠ سنة (أى حوالى سنة ٢٦٠٠ ق.م) . وقد تم العثور كذلك على بعض الأوانى الفخارية الكنعانية فى قبور ترجع لنفس هذه الفترة . (١٠) وفى مقابل الاخشاب والفخار كان الكنعانيون او الفينيقيون يستوردون من مصر الذهب والبردى وبعض الادوات المعدنية ، واستمرت العلاقات التجارية بين مصر وساحل الشام وازدهرت برا وبحرا بعد ان أصبحت مصر امبراطورية ، وصارت بيبلوس وصور وصيدا أسواقا هامة ليس فقط لمصر بل ولدول الجزيرة العربية عبر « طريق البخور » . وارتبطت هذه المدن كذلك بمراكز التجارة والصناعة فى منطقة الهلال الخصيب .

ومعروف ان العلاقة التجارية والثقافية بين دول غير متكافئة فى قوتها تؤدى فى النهاية الى سيطرة الدول القوية وبسط نفوذها على الدول الضعيفة وهذا ما حدث بالفعل إذ أن المدن الفينيقية خضعت للنفوذ المصرى . وحينما اجتاح الهكسوس مصر السفلى سيطروا كذلك على فينيقيا لكن ذلك لم يدم طويلاً اذ أن المصريين طردوا الهكسوس واستعادوا فينيقيا التى أصبحت جزءا من امبراطوريتهم .

ويرد فى قوائم غنائم تحتمس الثالث الذى استولى عليها من بلاد الشام ، الاطباق والأوانى ، والمدى الذهبية ، والموائد المطعمة بالعاج والأبنوس والذهب ، مما يدل على دلالة واضحة على مستوى المعيشة المرتفع الذى كان يتمتع به الفينيقيون .

وفى بداية القرن الرابع عشر ق.م. سيطر الحيثيون والعموريون على فينيقيا ولم يستطع اخناتون فرعون مصر آنذاك من الوقوف فى وجه الحيثيين أو صد هجماتهم لانشغاله بدينه الجديد الذى وحد الالهة . وحينما ولى رمسيس الثانى حكم مصر اعاد نفوذها وسيادتها على

فينيقيا ولم يستمر طويلا لان قوة مصر أخذت فى الضعف وتقلص نفوذها تدريجيا مما أتاح للمدن الفينيقية فى استعادة استقلالها .[11]

استقلال فينيقيا وتوسعها الاقليمى : (انظر الخريطة رقم ١)

بعد أن اضمحل نفوذ المصريين والحيثيين نعمت المدن ولمدة ثلاثة قرون (من ١٢٠٠ ق.م — ٩٠٠ ق.م) بفترة عمها السلم والازدهار والرخاء الاقتصادى . ولقد ساعد على استقرار المدن الفينيقية انها اختارت ملوكاً يحكمون فى اطار ما يعرف بالحق الالهى مما أكسبهم هيبة دينية ونفوذا سياسيا . ولم تكن سلطة هؤلاء الملوك مطلقة بل عرفت هذه المدن مجالس لكبار الشخصيات تضم قباطنة السفن والتجار وعمداء العائلات الارستقراطية . وكان لهذه المجالس آراء يصغى اليها الملوك .

وقد تم فى بعض الفترات ظهور ائتلافات اختيارية بين بعض المدن إنبثقت من واقع المصالح الذاتية . ومما هو جدير بالذكر أن التنافس التجاري بين المدن والولاء للملك والتفانى فى مراعاة المصالح المحلية لكل مدينة كانت من الامور التى تحول دون ظهور وحدة حقيقية كاملة بين هذه المدن الفينيقية . وقد تضافرت مجموعة من الظروف الطبيعية مع العوامل البشرية السابقة فى بقاء هذه المدن دون ما وحدة جامعة تربط بينها . ومن هذه العوامل كثرة الانهار التى تفصل بين اجزاء فينيقيا المختلفة . والكتل الجبلية التي تعوق الاتصال . ووجود بعض المدن التى اتخذت من الجزر القريبة من الساحل مقرا رئيسيا لها .

وعلى الرغم من الظروف السابقة فقد استطاعت بعض المدن من فرض اتحاد فيدرالى يجمع بين بقية المدن مثل :

١ — مدينة اوغريت Ugarit (راس شمرا الحالية) فى أواخر السادس عشر ق.م.

٢ — مدينة اردوس وجبلا فى القرن الرابع عشر ق.م.

٣ — مدينة صيدا فى القرن الثالث عشر ق.م.

٤ — مدينة صور فى القرن الحادى عشر ق.م.

ومن أشهر ملوك صور الملك حرام الاول Hiram I (حوالى القرن العاشر ق.م) وكان صديقا زحليفا للملك سليمان وهو الذى مد سليمان بالمعماريين وعمال البناء الذين أقاموا معبده فى مدينة القدس وشيدوا بحريته او اسطوله Navy على خليج العقبة فى تل الخليفى . (١٢)

وقد كان الاشوريون يتطلعون الى السيطرة على فينيقيا منذ اوائل القرن الحادى عشر ق.م. . ولكن غزوهم الحقيقى لم يتم الا بعد قرنين من هذا التاريخ حينما تمكن « أشور ناصر بال الثانى » (٨٨٣ — ٨٩٠ ق.م) وابنه « شلمنصر الثالث » (٨٥٨ — ٨٢٤ ق.م) من السيطرة على سوريا . وكان خضوع الفينيقيين للغزاة الجدد خضوعا اسميا تجسد فى دفع جزية لهم . وظل هذا الخضوع الاسمى احيانا والتام في أحيان أخرى حتى جاك شلمنصر الخامس الذى فرض ضرائب باهظة على ارادوس وبيبلوس وصور . ثم خضعت صور « لسناخريب » عام ٧٠١ ق.م وجاء ابنه « اسارهدون » الذى دمر مدينة صور تماما فى عام ٦٢٥ ق.م . وتلا ذلك اكتساح « أشور بانيبال » المدينة عام ٦٦٤ ق.م . وهكذا ضاعت آمال الفينيقيين فى حكم بلادهم وتبددت احلامهم امام هجمات هذا الجيش القوى .

وحينما سقطت نينوى على يد البابليين عام ٦١٢ ق.م. انهارت دولة الأشوريين وظهرت

قوة البابليين الذين رأوا أنهم ورثة الاشوريين فى الساحل الفينيقي ، فشنوا هجوما على هذه المنطقة بقيادة « نيو ختنصر الثانى » واحتلوا بيت المقدس ، لكن مدينة صور قاومت باستبسال لمدة ثلاثة عشر عاما قبل ان تخضع نهائيا للبابليين عام ٥٣٣ ق.م. الذين تمكنوا من بسط نفوذهم على تلك المنطقة . لكن سيطرة البابليين لم تدم طويلا حيث تمكن والفرس من الاستيلاء على ممتلكات البابليين فى سوريا وفينيقيا التى قسموها الى ولايات وجعلوا عاصمتها صيدا . وقد استفادت فينيقيا ماديا من هذا الوضع الجديد حيث اتسع مجال تجارتها . وعندما اندلعت الحرب بين الفرس واليونانيين وقف الفينيقيون باخلاص الى جانب الفرس وعاونوهم وزودوهم بسفن من أساطيلهم . وبسبب صلف حكام الولايات من الفرس وارهاق الفينيقيين بالضرائب وبدأت حركات التمرد وقادت مدينة طرابلس اول انتفاضة ضد ظلم الحكم الفارسي وتبعتها بقية المدن ، ولكن هذه الانتفاضة لم تدم طويلا اذ استطاع الفرس تدمير صور وصيدا عام ٣٥٠ ق.م. تقريبا . ثم جاء الاسكندرالمقدونى ليضع نهاية للحكم الفارسى الذى دام قرنين من الزمن .

ولقد رحبت المدن الفينيقية (ارادوس وبيبلوس وبيروت وصور) بالحكم اليونانى الا مدينة صيدا التى أبت أن تخضع للمستعمر كعادتها وصممت على مقاومته . ولكن ذلك الموقف لم يرض الاسكندر فصمم ان يجعل منها عبرة ومثلا لسائر المدن فحاصرها لمدة سبعة أشهر حتى استسلمت ، وكان ثمن صمودها حيث أباد الاسكندر ثمانية آلاف من سكانها وباع ثلاثين ألفا منهم كأرقاء .(١٣)

وبعد وفاة الاسكندر الاكبر اصبحت فينيقيا جزءا من المملكة السورية تحت حكم سلوقس Seleucid ، وفى عام ٦٤ ق.م. حل الحكم الرومانى محل الحكم السلوقى وفقدت المدن الفينيقية استقلالها وشخصيتها وذابت فى كيان الامبراطورية الرومانية .

أهم اسهامات الفينيقيين الحضارية :

تتمثل أهم الاسهامات الحضارية الفينيقية فى المجالات الآتية :

١ ــ ابتكار الحروف الابجدية .

٢ ــ التفوق الملاحى والكشوف الجغرافية .

٣ ــ انشاء المستوطنات والموانىء الساحلية .

٤ ــ المهارة التجارية .

٥ ــ النبوغ فى مجال صناعات عديدة .

٦ ــ التفوق فى مجالات حضارية اخرى .

أولا : ابتكار الحروف الابجدية :

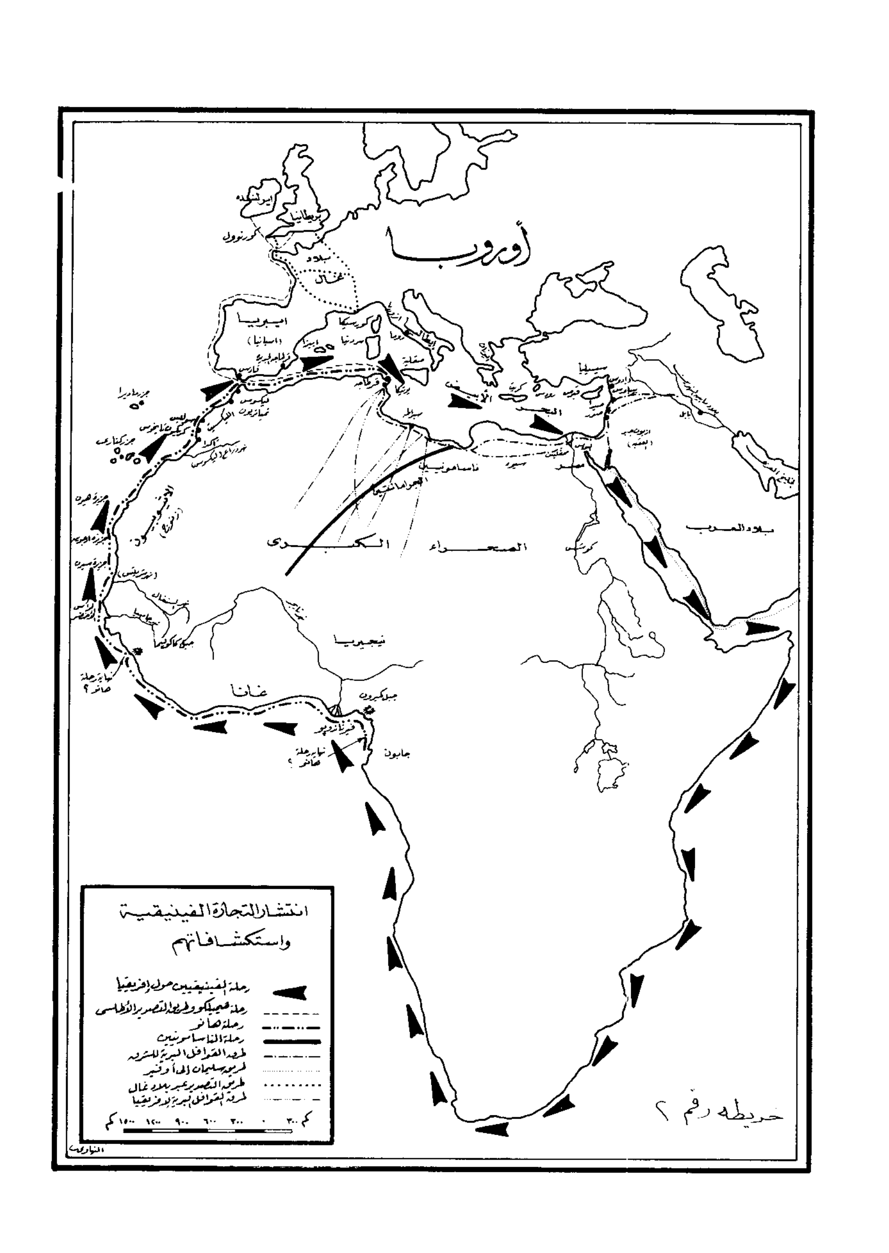
وترد فى الانجيل اشارات عن تجارة الفينيقيين الاولية ، وذلك فى المعاملات التجارية بين « حرام العظيم » ملك « صور » وبين « داود » و « سليمان » والتى كانت تتكون من شحنات من أشجار الارز مصحوبة بنجارين وبنائين لبناء منزل « لداود » وكذلك « لسليمان » الذى كان يعطى « حرام » مقابل ذلك ألف معيار من القمح وعشرين معيارا من الزيت كل سنة . ثم قام « حرام » بمساعدة « سليمان » بالاهتمام بشؤون تجارة البحر الأحمر ، وذلك بتمويله بالسفن والربابنة الذين أبحروا الى أوفير Ophir (فى الهند ؟) وجلبوا منها الذهب . (٣٢)

وترد اشارات عن شهرة الفينيقيين التجارية فى المصادر الاغريقية ابتداء من الالياذة والاوديسا فنازلا . ويبدو ان حركة النقل التجاري بين فينيقيا وبلاد اليونان قد تقلصت تماما أثر ازدهار التجارةالإغريقيةفى القرن الثامن ق.م ، مما أدى الى تناحر بين الدولتين المستعمرتين بلغ أوجه عام ٤٨٠ ق.م ، بهزيمة « قرطاجة » على يد الاغريق . وقد لقى الفينيقيون المنافسة الاغريقية أيضا فى اسبانيا ولكنهم استطاعوا استعادة نفوذهم بطرد الاغريق من الساحل الجنوبي الشرقى لشبه الجزيرة . (٣٣)

وبالاضافة الى تجارة الفينيقيين فى المواد الخام مثل الأخشاب من لبنان والمعادن من الغرب والصبغة الارجوانية التى اشتهروا بها ، فانهم كانوا يتاجرون أيضا بالبضائع المصنعة مثل الأقمشة والمنتجات الزراعية والأدوات المعدنية بجانب دورهم كوسطاء فى بعض الأحيان فى نقل البضائع الاغريقية والمصرية . وتشير الى ذلك المخلفات التى عثر عليها فى « قرطاجه » من التمائم والقلائد المصنوعة فى مصر والتى وجدت بكميات كبيرة وتنتمى زمنيا لفترة حكم الاسرة السادسة والعشرين . ويبدو ان البضائع المصنوعة فى مصر قد اخذت تقل بعد نهاية القرن السادس ق.م ، وأخذت تحل محلها منتجات المصانع الفينيقية فى الغرب أو « قرطاجة » نفسها . (٣٤)

ومن المحتمل ان الفينيقيين والاغريق كانوا يتاجرون مع ايطاليا ، لأن وجود بعض البضائع الفينيقية مثل الزجاج والقلائد ، والمصنوعات العاجية الخ .. تدل على وجود صلة بين هؤلاء وبين المستعمرات الاغريقية فى ايطاليا . ولأنه من المستبعد أن تكون هذه البضائع قد وصلت على متن السفن الاغريقية او حملها الاترسكيون الذين لم تكن لهم صلات تجارية مع مدن الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط ، فيمكن الافتراض بأن الفينيقيين أنفسهم هم الذين أتوا الى هناك. ومعروف أيضا من نص المعاهدة التى وقعت بين « قرطاجة » و « روما » عام ٥٠٩ ق.م ، ان الاولى كانت لها مصالح تجارية فى أواسط ايطاليا . وبموجب هذه المعاهدة التى حددت مناطق النفوذ السياسى والتجارى بينهما ، وافقت « قرطاجة » على عدم الحاق الضرر بمدن رومانية معينة وعدم اقامة قلعة فى لاتيوم Latium (٣٥)

وكان للفينيقيين صلات تجارية مع دول أخرى .. مثل « اوفير Ophir « » (التى لم يحدد موقعها بالضبط .. ويرجح انها في الهند) وفى افريقيا عن طريق البحر الاحمر . اما فينيقيو « قرطاجة » فقد أنشأوا صلات تجارية عن طريق البر والبحرمع المناطق الواقعة جنوب


أوروبا
بريطانيا
كورنوول
إيبيريا
(إسبانيا)
كورسيكا
سردينيا
إيطاليا
صقلية
بيزنطة
صور
الصحراء الكبرى
بلاد العرب
نيجيريا
غانا
جابون
انتشار التجارة الفينيقية
واستكشافاتهم
رحلة الفينيقيين حول إفريقيا
رحلة هيميلكو وطريق القصدير الأطلسي
رحلة حانو
رحلة الناسامونيين
طريق القوافل البرية للشرق
طريق سليمان إلى أوفير
طريق القصدير عبر بلاد غال
طرق القوافل البرية إلى إفريقيا
كم ٣٠٠ ٠ ٣٠٠ ٦٠٠ ٩٠٠ ١٢٠٠ ١٥٠٠ كم
خريطة رقم ٢

الوصول الى الاراضي الزراعية الغنية في سوريا . وكانت الغابات التى تغطى هذه الجبال مصدرا لأخشاب الارز والتنوب التى اعتمدت عليها صناعة السفن . ومعروف ان الساحل الفينيقى تكثر به التعاريج مما أتاح قيام الموانىء الجيدة كما كان ضيق الاراضى الزراعية دافعا لهم للاتجاه نحو الصناعة والبحر.

لكل هذه الاسباب الف الفينيقيون ركوب البحر وقاموا برحلات عديدة واستكشافات مثيرة .

وقد أبحر الفينيقيون فى البحر الابيض المتوسط ولكننا لا نستطيع ان نطلق على هذه الرحلات بانها استكشاف وذلك لان طرق الملاحة الرئيسية فى هذا البحر كانت معروفة ومطروقة منذ العصر البرونزى ان لم تكن قبل ذلك . ولكى نقف على اسهام الفينيقين فى الكشف الجغرافى يجب ان ننظر الى ما وراء هذا البحر .. ومن حسن الحظ ان هناك اشارات وردت في بعض قصص الكتاب القدماء تساعدنا في التعرف على منجزاتهم في هذا المضمار [١٦] وهى ثلاث رحلات قاموا بها فالمؤرخ هيرودوت مثلا يصف لنا كيف استطاعت فئة من الفينيقيين بإيعاز من فرعون ومصر نخاو الثانى (٦٠٩ = ٥٩٣ ق.م) الإبحار عن طريق البحر الأحمر لندور حول افريقيا فى رحلة استغرقت ثلاثة أعوام كانوا خلالها يتوقفون كل عام لزراعة المحاصيل وحصدها للحصول على المؤن الغذائية ثم يعاودون السير [١٧] . وهذه القصة لقيت قبولا عند مثير من المعلقين المحدثين وذلك استنادا على الكلام الذى ورد على لسان الرحالة أنفسهم بأنهم عندما كانو يبحرون حول ليبيا (افريقيا) كان موضع الشمس على يمينهم [١٨] .

اما الرحلتان الأخريان فهما : رحلة « هانو Hanno «» الذى ذهب حتى غرب افريقيا ثم رحلة هيملكو Himilco الذى أبحر شمالا حول شبه جزيرة ايبريا . ولأن اخبار هاتين الرحلتين لم يرد ذكرهما فى كتابات « هيرودوت » الذى كتب عن الرحلة حول افريقيا المشار اليها آنفاً . فمن المرجح ان الرحلتين لم تحدثا حينذاك بل حدثتا حوالى عام ٤٢٥ ق.م أو فى وقت لاحق بقليل . ومعرفتنا برحلة « هانو » أكثر من معرفتنا برحلة « هيملكو » لان وصف هانو القصير عن رحلته قد حفظ لنا فى ترجمته الاغريقية . فى حين ان رحلة « هيملكو » لا نعرف عن تفاصيلها الا ما تضمنه كتاب « » Ora Maritima « » للكاتب الجغرافى الرومانى « افينوس Avienus « » الذى كتب فى القرن الرابع ق.م ويرد ذكر الرحلتين أيضا عند « بلينى الاكبر Pliny « » الذى أبدى شكوكه فى صدق رحلة هانو . وقد بوشرت الرحلتان عندما كانت قرطاجة تحاول جاهدة تقوية وتدعيم مصالحها فى الغرب خاصة بعد المنافسة الاغريقية التى عاقت تقدمها فى بسط نفوذها على الاماكن القريبة منها .

وربما كان الغرض من رحلة « هيملكو » هو فتح « طريق القصدير » الغربى لان الكميات المستخرجة من مناجم اسبانيا لم تعد تكفى لسد احتياجات الدولة . ولعدم وجود مصادر اخرى عن هذه الرحلة غير اقتباس « افينوس » لقصة عمرها ثمانمئة سنة فاننا لا نستطيع تحديد الاماكن التي وصل اليها « هيملكو » فى رحلته هذه على وجه الدقة ولا اين انتهت . ولكن،

من بعض اسماء الاماكن التى وردت فى الكتاب نستطيع ان نستخلص بأن « هيملكو » واصل رحلته بدون توقف عبر القنال الانجليزى حتى «كورنول » فى جنوب غربي بريطانيا ممهداً بذلك الطريق لقرطاجة لتشارك فى تجارة القصدير البريطانى مع تجار البحر الأبيض الآخرين الذين كانوا ينقلونه على الطريق البرى عبر بلاد الغال(فرنسا) .(١٩)

وليس هناك دليل أثرى مباشر يؤكد اتصال الفينيقيين ببريطانيا فى ذلك الوقت مما يؤيد قصة « هيملكو » ، ولو أن هناك عدداً من مخلفات أثرية ترجع للعصر الحديدى وجدت فى كورنول تشير الى وجود اتصالات ايبرية ، والنقود القرطاجية التى وجدت فى بريطانيا تنتمى الى فترة لاحقة ولا تعنى بالضرورة وجود اتصال مباشر بين البلدين .(٢٠)

أما بالنسبة لرحلة « هانو » فالوضع يختلف تماما . فالمخطوطة الوحيدة الباقية لا يتعدى عمرها الزمنى القرن العاشر الميلادى ، وتعرضت للتحريف نتيجة النقل الكثير . ورغم ذلك فالقصة تعرضت للتعليق من قبل كثير من الكتاب المحدثين لطرافتها والتفاصيل التى اشتملت عليها . وقد تقبل معظم الكتاب القصة الاساسية ولكنهم اختلفوا فيما بينهم فى تعريف وتحديد الاماكن التى ذكرها « هانو » وفى أقصى نقطة وصل اليها فى رحلته . فالقصة تنقصها الدقة ومليئة بالتناقضات . وقد قيل فى تفسير ذلك بأن « هانو » ربما لجأ الى ذلك للتمويه ولتضليل أعداء « قرطاجة » وتخويفهم حتى لا يتبعوا أثره وينافسوهم فى خيرات البلاد التى اكتشفوها .(٢١)

ويجرى نص القصة كالآتى :

« هذه هى قصة رحلة هانو (ملك القرطاجيين) الطويلة فى البلاد الليبية التي تقع فيما وراء أعمدة هرقل (جبل طارق) والتى أهداها علي لوحة إلى معبد كرونوس : —(٢٢)

١ — قرر القرطاجيون ان يبحر هانو الى ما وراء أعمدة هرقل ويؤسس مدنا فينيقية — ليبية . وفعلا أبحر «هانو » فى ٦٠ سفينة وفى رفقة ٣٠٠٠٠ رجل وامرأة مع كل الامدادات والمؤن والضروريات .

٢ — وبعد أن أبحروا فيما وراء الاعمدة لمدة يومين قمنا بانشاء أول مدينة أطلقنا عليها اسم « تمياتيريون Thymiaterion » فى ربوة وفى أسفلها كان يقع سهل فسيح .

٣ — ومن هناك أبحرنا غربا حتى وصلنا « سولويس Soloeis » وهى عبارة عن ربوة أو قمة جبلية ناتئة تغطيها الاشجار وعليها انشأنا معبد « بوسيدون Poseidon » .

٤ — ثم واصلنا الرحلة شرقا لمدة نصف يوم حتى وصلنا بحيرة قريبة من البحر يغطيها دغل من القصب الطويل تقتات عليها الافيال وحيوانات أخرى مفترسة .

٥ — وبعد مسيرة يوم واحد من هذه البحيرة أنشأنا مدنا ساحلية تحمل الاسماء الآتية : «كريكون تايخوس Krikon Teichos » و « غايت Gytte » و « أكرا Akra » و « مليتا Melitta » و « أرامبيس Arambys » .

٦ — ومن هناك واصلنا السير حتى وصلنا النهر الكبير « ليكسوس Lixos » الذى ينبع من ليبيا وعلى جانبيه يرعى الرعاة الذين يدعون « الليكسيت Lixitae » قطعانهم ، وقد قضينا فترة معهم وأصبحنا أصدقاء .

٧ — والى الداخل من موطن « الليكسيت » يقطن الاثيوبيون غير المضيافين فى أرض تعج بالحيوانات المتوحشة وتحيط بها جبال عظيمة ، ويقول هؤلاء بأن نهر « ليكسوس » ينبع من هناك ، وانه يعيش وسط هذه الجبال ساكنو الكهوف Troglodytes : قوم ذوو مظاهر غريبة ويجرون أسرع من الخيول على حد زعم « الليكسيت » .

٨ — وبمساعدة مترجمين من « الليكسيت » أبحرنا جنوبا على طول الساحل الصحراوى لمدة يومين ، ثم ابحرنا شرقا لمدة يوم واحد ووصلنا جزيرة محيطها خمسة استاديا (حوالى ٥ كم) وتقع فى الطرف الآخر من الخليج وعليها أنشأنا مستوطنا اطلقنا عليه اسم « سيرن Cerne » ، التى تقع على حسب تقديرنا مقابل قرطاجة مباشرة لان المسافة من قرطاجة الى أعمدة هرقل ومن هناك الى سيرن تبدو متساوية .

٩ — ومن هنا أبحرنا فى نهر كبير يسمى « شرتيس Chretes » حتى وصلنا بحيرة بداخلها ثلاث جزر اكبر مساحة من سيرن . وبعد مسيرة يوم كامل وصلنا الى نهاية البحيرة ، وتشرف عليها جبال عالية تزخر باناس متوحشين يلبسون جلود حيوانات متوحشة وقد أخذوا يرموننا بالحجارة وأفلحوا فى طردنا ومنعنا من الارساء على البر .

١٠ — ومن هناك واصلنا الابحار حتى وصلنا الى نهر آخر واسع يعج بالتماسيح وفرس البحر ، ثم قفلنا عائدين الى « سيرن » .

١١ — ومن « سيرن » أبحرنا جنوبا لمدة اثنى عشر يوما على مقربة من الساحل الذى كان يقطنه الاثيوبيون الذين كانوا يهربون منا وكانوا يرطنون بلغة لم يستطع حتى « الليكسيت » فهمها .

١٢ — وفى آخر يوم ألقينا مراسينا قرب جبال عالية تكسوها أشجار ذات أوراق مبرقشة ولها رائحة ذكية .

١٣ — وبعد أن أبحرنا حول هذه الجبال لمدة يومين وصلنا خليجا كبيرا يحف به على الجانبين سهل تغطيه بالليل نيران صغيرة وكبيرة توقد على مسافات معينة .

١٤ — وبعد ان تزودنا بالماء من هنا أبحرنا لمدة خمسة أيام على طول الساحل حتى وصلنا خليجا أطلق عليه مترجمونا اسم « القرن الغربى Horn of the West » وكانت به جزيرة كبيرة بها بحيرة مالحة وبداخلها جزيرة اخرى صغيرة رسونا عليها . وأثناء النهار لم تقع أبصارنا الا على غابات مترامية الاطراف ، وعند الليل رأينا نيرانا تشتعل وسمعنا أصواتا مبهمة تصحبها دقات الطبول وعزف الناى . وقد تملكنا الخوف وغادرنا الجزيرة بعد أن نصحنا العرافون بذلك .

١٥ — ومن هنا أبحرنا بسرعة وطفنا حول ساحل مفعم برائحة البخور المحترقة ، وكانت انهار الحمم النارية تشق طريها الى البحر ولم تستطع الاقتراب من اليابسة لشدة الحرارة .

١٦ — وعلى عجل غادرنا ذلك المكان وأبحرنا لمدة أربعة أيام كنا خلالها نرى النيران وهى تتصاعد في الليل يتوسطها لهيب طويل يكاد يصل عنان السماء ، وعند النهار عرفنا انه جبل عال يطلق عليه « عجلة الالهة Chariot of the Gods » .

١٧ — ولقد واصلنا الابحار على طول ساحل ملتهب مليء بالحمم لمدة ثلاثة أيام حتى

وصلنا خليجا يسمى « القرن الجنوبى Horn of the South « » .

١٨ — وفى الطرف البعيد من هذا الخليج ظهرت جزيرة فى وسطها بحيرة وبداخلها جزيرة تعج بالمتوحشين كان أكثرهم اناثا ذوات أجسام مغطاة بالشعر عرفها المترجمون بالغوريلا . وقد قمنا بمطاردتهم ولكننا لم نستطع القبض على الذكور الذين تسلقوا الصخور وفروا بعيدين وهم يرموننا بالحجارة ، ولكننا استطعنا القبض على ثلاث اناث لأنهن لم يقاومن بشراسة . وقد قمنا بقتلهن وأتينا بجلودهن الى قرطاجة . وتوقفنا عن الابحار هنا لنفاذ مؤننا » .

الى هنا ينتهى نص القصة ...

هناك اتفاق عام حول تحديد ومطابقة المواضيع التي ذكرها « هانو » ليكسوس الذى اتفق على أنه « وادى دراع Draa « » جنوبى المغرب . أما « الليكسيت » فيبدو انهم « البربر » فى حين ان « الاثيوبيين » زنوج كما تعنى كلمة « اثيوبيا » فى اللغة الاغريقية . واستخدام « الليكسيت » كمترجمين يوضح الى حد ما معرفة هؤلاء بالاقاليم الواقعة الى الجنوب من منطقتهم . اما تحديد موقع « سيرن » التى أسسها « هانو » على مسافة ثلاثة أيام من نهر « ليكسوس » فهو مهم جدا لانها تمثل أبعد مستوطنة دائمة للفينيقيين على ساحل غرب افريقيا ورد ذكره على لسان الكتاب القدماء . وقد افترضت ثلاثة تحديدات لموقع « سيرن » :

١ — جزيرة هيرن Herne مقابل الصحراء (الاسبانية سابقا) .

٢ — جزيرة ارقوين Arguin على مسافة ٢٠٠ ميل من جزيرة هيرن .

٣ — جزيرة غير محددة بدقة قرب دلتا نهر السنغال .

ويتفق معظم المصنفين المحدثين أن نهر « شريتس » هو نهر السنغال . وقد استبعد ان يرجع « هانو » الى « هيرن » بعد ان وصل الى نهر السنغال ولذلك يرجح ان يكون موضع « سيرن » قرب مصب نهر السنغال . ونجد بعض التأييد لهذا الرأى فى وصف حركة النقل والتجارة فى « سيرن » الذى ورد فى كتابات « سكايلاكس Scylax » الذى تكلم عن « مدينة كبيرة كان الفينيقيون يبحرون اليها » . وهذا الوصف ينطبق على مدينة نهرية ... ولا يوجد نهر صالح للملاحة قرب جزيرتي « هيرن » و « أرقوين » . وبالاضافة الى ذلك فان هذا الساحل الصحراوى المقفر ليس بالمكان الذى تقام فيه مستوطنات لتدعيم علاقات تجارية مع منطقة آهلة بالسكان . ويعتقد ان ما فعله « هانو » هو أنه أبحر فى فرع من فروع نهر السنغال فى اتجاه المنبع ورجع عن طريق آخر نحو مصبه ووجد النهر يعج بالتماسيح وأفراس البحر .

أما النتوء الجبلى المكسو بالاشجار فقد يكون « الرأس الأخضر Cape Verde « » ويمثل الخليج الكبير مصب نهر غامبيا » .

ويدب الخلاف بين الكتاب عن آخر نقطة وصل اليها الرحالة هانو : بعضهم يقولون بأنه وصل الى « الكميرون » أو حتى « جابون » فى حين يحدد آخرون « سيراليون » كآخر نقطة

وصل اليها . وهذا الفريق الأخير يستند فيما ذهب اليه على نقطتين أساسيتين :

الأولى :

قلة الرياح فى خليج غينيا والحرارة الشديدة والتيارات العكسية مما يجعل التجديف مرهقا وصعبا خاصة لمسافات طويلة .

والثانية :

التواقيت الزمنية التى يذكرها « هانو » تتناقض مع رحلة طويلة كهذه .

أما الذين يرجحون الرحلة الطويلة (الى الكميرون وجابون) فيستندون فى حججهم على الآتى :

ان جبل « الكميرون » وهو جبل بركانى مرتفع (١٣٫٣٧٠ قدم) يطابق حسب الوصف « عجلة الالهة » أكثر من جبل « كاكوليما » (٢٫٩١٠ قدم) فى غينيا .[٢٣]

أما عن النشاطات الفينيقية فى استكشاف جزر المحيط الاطلسي فالأدلة عليها قليلة جدا . ولكننا لا نستبعد ان يكون الفينيقيون على معرفة بجزر « ماديرا » و « كنارى » لقربها من الساحل الافريقي الذى أنشأوا عليها مستوطنات تجارية لهم . والمرجع القديم الوحيد هو رواية « ديودورس » عن سفينة ضلت طريقها فى المحيط الاطلسى بسبب الرياح الشديدة ورست في جزيرة ذات مناخ طيب — ربما تكون « ماديرا » . ويذكر « ديودورس » أيضا كيف أن الأترسكيين Etruscans حاولوا تأسيس مستوطن لهم هناك ولكن القرطاجيين منعوهم من ذلك .. ولكن لم يعثر على مستوطنات فينيقية فى جزيرة « ماديرا » حتى الان .[٤٢]

أما جزر « كنارى » فهى قريبة جدا من الساحل الافريقي لدرجة اننا لا نستبعد معرفة الفينيقيين بها ، وان كان بقاء حضارة قبيلة « الجوانش Guanche » كما هى فى بدائيتها وتأخرها حتى القرن الخامس عشر الميلادى وبدون أى تغيير يدل على عدم احتكاكهم بحضارات أجنبية . ومن المحتمل أيضا ان الفينيقيين وصلوا جزر « الازور » ، فقد عثر فيها فى عام ١٧٤٩ على ثمانى قطع نقود بونية تنتمى الى القرنين الرابع والثالث.م ولكنها فقدت .[٢٥] ولكن يجب الا نعلق أهمية كبرى على هذه العملات الا من الناحية الاستكشافية ... فاذا كانت الجزر القريبة من الساحل الافريقى مثل « ماديرا » و « كنارى » خالية من المستوطنات الفينيقية فمن المستبعد أن نبحث عن هذه المستوطنات فى جزيرة بعيدة مثل « الازور » .

أما بالنسبة للاستكشافات البرية عبر الصحراء الكبرى فالاشارة الوحيدة لها هى ما ورد فى قصة كاتب يونانى يدعى « اثينيوس » (حوالى عام ٢٠٠ ق.م) ذكر بأن قرطاجيا يدعى « ماغو Mago » عبر الصحراك ثلاث مرات .. بدون ماء ![٢٦] ورغم ما فى القصة من مبالغات فاننا يجب ان لا نستبعد اغراءات ثروات افريقيا للتجار الفينيقيين واحتمالات تجهيز رحلات تجارية عبر الصحراء للحصول على هذه الثروات اما بأنفسهم أو بواسطة وسطاء مثل الجرمانتيين Garamates الذين كانوا يقطنون المنطقة الخلفية لمدينة طرابلس الحالية . ويذكر « هيرودوت » أن خمسة ناسمونيين Nasamones قد عبروا الصحراء ووصلوا

مدينة يسكنها زنوج أقزام ، ونهرا يجرى من الشرق الى الغرب وتكثر فيه التماسيح .[27] وربما يكون نهر النيجر . وكانت هناك طرق برية تربط بين قرطاجة ومصر .

ويعتبر الفينيقيون أول من أبحروا فى المحيط الأطلسى ، وأول من استوطنوا فى جزيرة « سردينيا » وأسسوا بها خمسة مستوطنات وذلك حوالى عام ٨٠٠ ق.م. كما أنهم أول من استعانوا بالنجم القطبى North Star فى الابحار ليلا مستخدمين جداول المسافات . وقد اطلق الاغريق ، الذين تعلموا فن الملاحة من الفينيقيين ، على هذا النجم اسم « النجم الفينيقي » وقد طور الفينيقيون سفنهم الشراعية حتى تتمكن من الابحار بعيدا عن الساحل ولمسافات طويلة فى رحلاتهم التجارية .

ثالثا : إنشاء المستوطنات او المستعمرات :

يرجع تاسيس المستعمرات الى فترة الاستقلال الفينيقى . وربما دفع الغزو الاشورى الفينيقيين الى الاسراع فى اقامة المستعمرات بالاجزاء الغربية من حوض البحر الأبيض المتوسط فى محاولة لايجاد مرافىء آمنة وأسواق جديدة . ويبدو ان هذه العملية بدأت حسب قول « بلينى وديودورس وسيليولوس » فى أواخر القرن الثانى عشر ق.م . على ان الفترة ما بين القرن العاشر والسابع ق.م هى التى شهدت اقامة معظم المستعمرات [28] فى حوض البحر الابيض المتوسط ابتداء من سيلسيا (جنوب تركيا) ومصر عبر اليونان وصقلية الى جنوب بلاد الغال (فرنسا) واسبانيا وشمال افريقيا وقبرص ومالطة وابرزا وسردينيا ، وما زالت بعض هذه المستعمرات تحمل الاسماء السامية مثل : قادس فى اسبانيا (بمعنى حائط) وبوتيكا (المدنية القديمة) وقرطاجه (المدينة الجديدة) ومالطه (ربما سامية بمعنى مأوى) وتربط اسطورة يونانية مدينة (كورنث) باله من أصل « صورى » يدعى « ملكارت Melkarth » وان زائرا صوريا يدعى «كادموس Cadmus » (بمعنى القادم الجديد) أتى بالحروف الابجدية وأنشأ « طيبة » ثم واصل سيره للبحث عن اخته « أوروبا » التى اشتقت القارة اسمها منها .[29]

وأشهر المستوطنات الغربية هى « قرطاجة » وقد تم تأسيسها حوالى عام ٨١٤ ق.م على يد مستوطنين من « صور » . وقد أخذت « قرطاجة » تقوى سياسيا وتجاريا حتى فرضت سيادتها على جزء كبير من شمال افريقيا وجنوبى اسبانيا . وأصبحت منافسا خطيرا للمدينة الناشئة آنذاك روما . وعندما أخذت « صور » تعانى سياسيا وتجاريا من التوغل الاشورى الزاحف والتنافس الاغريقى المتزايد . اخذت قرطاجة دور الحامى للمستعمرات الفينيقية المجاورة لها وهكذا ازداد نفوذها حتى امتدت امبراطوريتها من ليبيا حتى أسبانيا .

وقد بلغ مجموع المستوطنات الفينيقية خمسين مستوطنة على أقل تقدير . وتتفاوت هذه المستوطنات من محطات تجارية صغيرة الى مدن كبيرة مثل قرطاجة وقادس وقرطاجة الجديدة فى اسبانيا ، ولما كان الهدف من وراء تأسيس هذه المستعمرات تجاريا فى المقام الأول فان هذه المستوطنات لم تشهد هجرات على مستوى كبير من الوطن الأم — فينيقيا .

رابعا : مهارة الفينيقيين التجارية :

بدأت تجارة القوافل فى الشرق الأدنى — على حسب ما ورد فى الانجيل — فى وقت مبكر . وكانت تأتى بالعاج والرقيق والحبوب والماشية والذهب من افريقيا الى آسيا وترجع محملة بالمعادن والمنتجات المعدنية والأقمشة الى مصر . وكانت البضائع الخفيفة الوزن تنقل برا على ظهور الدواب بينما كانت الطرق البحرية الساحلية والنهرية تستخدم — كلما سنحت الفرصة — لنقل البضائع الثقيلة مثل الخشب . (٣٠)

وتوضح النقوش الاشورية سفنا نهرية صغيرة يقودها فينيقيون وهى تفرغ حمولتها من الخشب فى بلاد ما بين النهرين ، ولكننا لا ندرى كيف وصلت السفن الى هناك وربما تكون الأخشاب قد انقلبت براً من الأجزاء الدنيا من نهر العاصى أو عن طريق البحر الى « طرسوس » (فى تركيا) ومنها الى بلاد ما بين النهرين عبر الطريق الرئيسي من آسيا الصغرى .

ويرد ذكر التجار الكنعانيين من « بيبلوس » فى الكتابات المصرية ابتداء من المملكة القديمة فصاعدا ، وليس من المستبعد ان تكون الملاحة والتجارة والتبادل الفكرى قد استمر بين المنطقتين بدون انقطاع حتى استقلال فينيقيا . وقد كانت الامبراطوريتان المصرية والأشورية تشجعان هذه التجارة لما يعود عليهما من فوائد اقتصادية . وما من شك فى أن المدن الساحلية قد تركت لتمارس هذه التجارة بحرية وبدون تدخل من هاتين القوتين . ولكن المغامرات البحرية الفينيقية الطويلة لم تبدأ إلا بعد حوالى ١٢٠٠ ق.م . حين انهزم المينويون والما يسينون الذين كانوا يسيطرون على تجارة الحوض الشرقى للبحر الابيض المتوسط . ومنذ فترة كانت المدن الساحلية الفينيقية تتحين الفرصة لتنطلق بتجارتها الناشئة الى آفاق جديدة نحو الغرب : فسكان بحر ايجه المهزومون كانت لهم صلات تجارية قوية بجنوب ايطاليا وصقلية وجزر البحر التيرانى كما ان أخبار ارسابات المعادن الغنية فى اسبانيا (حديد وقصدير) وبريتانى وبريطانيا (قصدير) كانت شائعة فى ذلك الوقت . وقد أعانهم فى اقامة الصلات التجارية الجديدة التجار المايسنين الذين استوطنوا فى المدن الفينيقية . (٣١)

ومن المحتمل ان الهجرات الفينيقية الاولى كانت لغرض التجارة أكثر منها للاستيطان والاستعمار .. ورغم ان التوغل العبرى Hebrews قد أدى الى ازدحام سكانى فى هذه المنطقة الساحلية . مما أدى الى هجرة بعض السكان الاصليين من الكنعانيين شمالا نحو المدن الفينيقية فمن المستبعد أن تكون هذه الزيادة السكانية قد جاءت نتيجة لاستيطان المستعمرات الكثيرة التى انشئت في البداية كما تصورها المصادر القديمة . واذا استثنينا بعض المدن الرئيسية مثل « قرطاجه » و « يوتيكا Utica » و « قادس » فمن المرجح أن معظم تلك المستعمرات الاولى . خاصة فى الغرب . كانت عبارة عن مرافىء على مسافات معينة من بعضها البعض حيث تلقى السفن مراسيها لفترة لتتزود بالمؤن ثم تعاود المسير . وعدم وجود بقايا أثرية خاصة بهذه الفترة فى هذه المواضيع قد يؤيد هذا الكلام .

فى مقدمة ما أسهم به الفينيقيون حضاريا ابتكارهم لنظام الحروف الابجدية الحالى وهم بهذا الابتكار قد اسدوا خدمة جليلة للبشرية جمعاء ، ولا يقل هذا الابتكار عن اكتشاف الزراعة او الثورة الصناعية من حيث أهميته . لقدكان الانسان فى البداية يستخدم صورا ليعبر عن آرائه للآخرين ، وطريقة استخدام الصور طريقة مرهقة وبطيئة نشأت مستقلة فى عدة اماكن ثم تطورت الى نوع من الكتابة المقطعية والتى تطورت بدورها الى الكتابة الابجدية التى ظهرت فى مصر لأول مرة ، ولكن الأبجدية المصرية (الهيروغليفية) كانت رموزا ، وكانت هذه الرموز أربعة وعشرين رمزا كل منها عبارة عن صورة من البيئة المحلية .

وقد ظهرت الكتابة الصورية أيضا فى سومر وبابل ، وهي ما يعرف بالحروف المسمارية وكان على المرء اذا أراد ان يعبر عن نفسه ان يتقن استخدام ٥٦٠ رمزا يمثل كل رمز منها مقطعا .[١٤]

ولما كانت هذه الوسائل التى استخدمها الانسان فى الكتابة بطيئة ومرهقة ولم تكن عملية فى التعاملات التجارية ، فقد ابتكر الفينيقيون نظام الابجدية الحالية . ونحن لا نعرف على وجه الدقة كيف تم ذلك الابتكار وكل ما نعرفه ان التجار الساميين الذين كانوا يتاجرون مع مصر فى شبه جزيرة سيناء استطاعوا تطويع الرموز المصرية . ووصل هذا التطوير الى الفينيقيين الذين ادخلوا عليه الكثير من التعديلات فى القرن الثالث عشر ق.م حتى صار نظاما ابجديا يتكون من اثنين وعشرين حرفا بعد حذف الحروف اللينة .[١٥]

واقتبس الفينيقيون من المصريين أيضا طريقة الكتابة ورق البردى بحبر مصنوع من عصارات نباتية ، وكانت هذه الطريقة أجدى وأيسر من طريقة البابليين الذين كانوا يجمعون لوحات من الطين اللين حتى تجف بعد الكتابة وتصبح قوية .

ويبدو ان الفينيقيين هم أول من نظم حروف الكتابة ورتبها ترتيبا ثابتا وأطلقوا على الحرف الأول « ألف Aleph « » (ثور) والثانى « بيت beth « » (منزل أو بيت) وهكذا . واقتبس الاغريق الحروف الفينيقية وقلدوا أصواتها وقالوا « ألفا Alpha « » و « بيتا Beta « » . وقد اشتق تعبير أبجدية أو Alphabet، من الحروف الاولى وفق تنظيم الفينيقيين .

وهكذا نجد أن نظام الأبجدية اسهام فينيقى لولاه لاخذت الحضارة منحى مختلفا ولما قطعت البشرية هذا الشوط العظيم فى مجال العلوم والثقافة .

ثانيا **التفوق الملاحى والكشوفات الجغرافية** : (انظر الخريطة رقم ٢) .

اتجه الفينيقيون الى البحر لعوامل عديدة منها ان فينيقيا كانت مطوقة بدول قوية من الشمال (الحيثيون) ومن الشرق (الآراميون) ومن الجنوب (الفلسطينيون) وكان الطريق الوحيد المفتوح أمامهم هو الاتجاه نحو الغرب الى البحر . كما كانت جبال لبنان العالية التى كانت تحمى المدن الساحلية من هجمات الآراميين كانت ايضا حاجزا يحول بين فينيقيا وبين

الصحراء الكبرى ونيجيريا وربما المناطق الجنوبية من غرب افريقيا . فقد كانت الصحراء الكبرى آنذاك أقل جفافا وكانت هناك طرق قوافل بين مصر وموريتانيا وبين ساحل البحر الابيض وبين نيجيريا . ومن المرجح ان الفينيقيين هم الذين أتوا بمنتجات هذه الرقعة الكبيرة من الذهب والعاج والحيوانات البرية والمستأنسة الى المناطق المتحضرة حول البحر الابيض المتوسط وربما كان القرطاجيون يستخدمون طريقا داخليا الى مصر يمر عبر واحة سيوه . ويؤيد « هيرودوت » وجود تجارة ساحلية للفينيقيين مع سكان الساحل الغربي لشمال افريقيا تمارس فيها اسلوب المقايضة . وترد قصة عرضية فى كتاب « رحلات Periplus » اغريقى عن تجارة قائمة بين الاثيوبيين والتجار الفينيقيين فى ساحل غرب افريقيا الممتد حتى مدينة « سيرن Cerne » [٣٦] وهناك بقايا أثرية فينيقية عثر عليها حديثا فى المغرب مما يدل على وجود صلات تجارية مع هذه المنطقة .

ويتعتبر الفينيقيون أول من وضعوا قوانين للمعاملات التجارية البحرية وقد عرفت باسم Rhodian Law نسبة الى جزيرة رودس . وينص القانون على أن أية خسارة يكتبدها قبطان بحرى نتيجة محاولاته لانقاذ سفينته اذا تعرضت للخطر (غرق مثلا) لا بد ان يتقاسمها جميع أصحاب البضائع الذين لهم بضائع في هذه السفينة بنسب معينة . ومثلا اذا اضطر قبطان سفينة لرمي بضاعة أحد التجار في البحر فى سبيل انقاذ سفينته من غرق محدد فان خسارة هذا التاجر يتحملها كل التجار الذين لهم بضاعة فى السفينة وصاحب السفينة . وكان هذا القانون مطبقا فى كل انحاء حوض البحر الأبيض المتوسط ويعرف فى القانون البحرى الحديث بـ Gross average

العملة الفينيقية :

مع أن استخدام العملة فى التجارة بدأ فى بلاد الاغريق اثناء القرن السابع ق.م ، وأصبح شائعا فى بداية القرن السادس ق.م . الا ان الفينيقيين لم يهتموا بفكرة استخدام العملة مبكرا رغم ميولهم ونزعاتهم التجارية . فطبيعة تجارتهم وتاريخها وعاداتهم التجارية القديمة واتصالاتهم الكثيرة واحتكاكهم مع أقوام بدائية فى معاملاتهم التجارية اكسبتهم مهارة فى استخدام اسلوب المقايضة . وحتى عندما كان الفينيقيون خاضعين لسيطرة الفرس لم يقوموا بأية محاولة لصك عملة لانهم لم يروا فائدة تجنى من ذلك ولان تجارتهم مع بلاد الاغريق كانت قد اضمحلت تماما .

وفى حوالى منتصف القرن الخامس ق.م.ضربت أول عملة فينيقية فى « صور » وتبعتها « صيدا » و « ارادوس » و « بيبلوس » فى أواخر القرن الخامس أو أوائل القرن الرابع ق.م . وربما يدل على هذا الضعف السياسي الذى أصاب الامبراطورية الفارسية وانبعاث التجارة الفينيقية مع بلاد الاغريق . أما باقى المدن فلم تضرب عملتها حتى الفترة الهلنستية . وقد كانت هذه النقود الفينيقية مصنوعة من الفضة او البرونز ، أما العملة الذهبية السائدة آنذاك فكانت الدارية Daric نسبة الى دارة الفارسى . [٣٧]

أما المدن الفينيقية فى الغرب فقد بدأت صك عملاتها فى وقت لاحق . وكانت أول نقود « قرطاجية » تتكون من ذهب على الطريقة الفينيقية ومن دراخما فضية على مقياس عملة يوتيكا ، وقد ضربت هذه النقود فى صقلية فى نهاية القرن الخامس ق.م عندما كانت « قرطاجة » فى حاجة الى نقود لتدفع المرتبات لجنودها . وقد صكت هذه المجموعة من النقود على الطريقة الفينيقية من ذهب وبرونز والكتروم (مزيج طبيعى من ذهب وفضة) . اما العملات الفضية فقد كانت نادرة حتى أواخر القرن الخامس ق.م حين استولى هميلكار Hamilcar على مناجم الفضة الاسبانية . ومنذ نهاية القرن الثالث ق.م سادت النقود البرونزية فى « قرطاجة » وانتشرت الى اماكن عديدة حتى بريطانيا والأزور . (٣٨)

أما المدن الفينيقية الاخرى فى الغرب التي كانت تمتلك عملات خاصة بها وذلك قبل القرن الثالث ق.م فتتمثل فى « صقلية » التى بدأت فى صك عملتها فى القرن الخامس ق.م ، وقادس و « أبيزا » (القرن الثالث ق.م) ، وكانت « قرطاجة » تملك دار صك فى « قرطاجة الجديدة » فى اسبانيا وكانت معظم عملاتها من الفضة .

خامسا : النبوغ الصناعى عند الفينيقيين :

أوضح الانجيل وكذلك الحفريات الاثرية أن الكنعانيين كانوا ، مثل بقية الشعوب السامية يحترفون الزراعة والرعى ، ومن المتوقع ان هؤلاءالكنعانيين اتخذوا صيد الأسماك حرفة عندما استقروا بجانب البحر ، كما أن كثرة الأخشاب الصالحة لعمل السفن فى الغابات المجاورة كانت من الاسباب التى أدت الى قيام تجارة بين « بيبلوس » ومصر فى الاخشاب .

وقد عمل الفينيقيون على تطوير صناعات محلية قوامها المواد الخام المحلية ثم المواد المستوردة . ومن الصناعات التى نبغ فيها الفينيقيون : —

١ — الصناعات الخشبية والحجرية :

كان لوفرة أشجار الأرز فى لبنان دور فى حذق الفينيقيين صناعة الأدوات المصنوعة من الخشب ، وقد كان الخشب يستخدم بكثرة في بناء المنازل خاصة فى الزخارف الداخلية . وكانوا أيضا يبنون منازلهم من الحجارة والآجر والطين .. ولكن المنازل التى تتكون من عدة طوابق كانت تبنى عادة من الأخشاب . وكثير من التوابيت الخشبية التى وجدت فى مصر كانت من عمل الفينيقيين . (٣٩) وكانت الاثاثات الخشبية تطعم بالعاج وكذلك بعض التماثيل الخشبية ، ولكن معظم هذه الأعمال قد اندثرت مع الزمن .

وقد برع الفينيقيون فى الأعمال الحجرية كبناء المنازل والمعابد والتوابيت وقد كان لوجود

الأحجار لأعمال البناء أهمية كبرى فى اختيار مواقع مستعمراتهم الجديدة ، وكانت اكثر الاحجار استعمالا هى الجيرية والرملية لسهولة نحتها . ولكن أحجام القوالب الحجرية كانت غير متناسقة ويتوقف الحجم على الغرض الذى سيستخدم من أجله : ففى بناء الحيطان الحاجزة كانوا يستخدمون قوالب كبيرة غير منحوتة بدقة فى حين أن بناء المنازل كان يتطلب أحجاما أصغر منحوته بدقة وعناية مع استخدام « مونه » من الجير احيانا . (٤٠)

٢ ــ صناعة النسيج والصباغة :

لا نعرف على وجه الدقة والتحديد كيف نشأت صناعة النسيج عند الفينيقيين ولا عن الصناعة نفسها لانه لم يعثر على بقايا أقمشة فينيقية فى الاماكن الأثرية الفينيقية ولا حتى من مصر التى كانت تزخر بأنواع من الاقمشة المختلفة . ولكننا نرى فى نقوش المقابر المصرية آسيويين من عناصر سامية يلبسون ثيابا صوفية واسعة وذات ألوان كثيرة وبعضها ملفوفة حول الجسم بعناية . وفى « بوابة البلوات » التى أقامها « شلمنصر الثالث » قرب مدينة « نمرود » فى العراق لتسجيل حملاته نرى الفينيقيين وهم يلبسون ثيابا طويلة وملفوفة حول أجسامهم مع قلنسوات ، وبما أن الصور المنحوتة توضح الزى العادى للفينيقيين كالذى نراه فى النقوش المصرية فليس ببعيد أن تكون تلك الصور تمثل الفينيقيين . ويبدو من هذه النقوش ان الفينيقيين كانوا يفضلون الزى المتقن الصنع ذا الالوان الكثيرة والمطرزة . وحتى فى « قرطاجة » احتفظ الفينيقيون وخاصة الرجال ، بزيهم الشرقى وكان تمسكهم بزيهم مثار تعليق الرومان والاغريق ، وكان لبسهم بسيطا فى شكله ومنظره ، أما النساء فقد آثرن الازياء الاغريقية . (٤١)

هذا وقد عثر على أدوات الغزل والنسيج فى بعض المقابر ، كما أن هناك بعض اشارات عابرة لصناعة النسيج فى بعض كتابات، الكتاب القدماء مثل « ديودورس » ويبدو من هذه الاشارات ان هذه الصناعة كانت تتم فى المنازل .

أما فن الصباغة فقد كان منتشرا فى أرجاء الممالك الفينيقية ، وكانت « صور » و « صيدا » من أهم مراكز هذه الصناعة . ويبدو انها كانت محتكرة عند الفينيقيين الشرقيين ولكن بقايا اصداف المريق Murex وأوعية الصباغة التى عثرت فى الغرب تدل على أن هذه المهنة كانت تمارس هنا أيضا .. كما فى « دار عسافى Essafi قرب « رأس بون » فى تونس التى كانت مركزا لصناعة الأصباغ وصيد الاسماك . ويمكن أن نعتبر الفينيقيين أول من استخدموا صبغة المريق فى صبغ الأقمشة . والطريقة كالآتى : عندما يموت هذا الرخوى ويتعفن يفرز سائلا أصفر اللون يضفى على القماش درجات من اللون تتراوح من الاحمر الوردى الى البنفسجى الغامق ويزداد اللون غمقا عند التعرض لأشعة الشمس . وطريقة عمل الصبغة هي أن يكسر الصدف وتستخرج المادة الداخلية وترمى فى الأوعية حيث تتحول الى

سائل . ولأن عملية استخراج الصبغة وعملية صبغ الأقمشة كانت مكلفة فقد كانت الأقمشة الارجوانية غالية لا يقتنيها الا الاثرياء .

٣ ــ الأعمال المعدنية :

استخدم الحديد فى منطقة ساحل البحر الابيض المتوسط الشرقى حوالى عام ١٢٠٠ ق.م. عندما كانت « فينيقيا » تتطلع للاستقلال . ولا يستبعد أن يكون الفينيقيون قد عرفوا الحديد لان الفلسطينيين كانوا يستخدمونه أيضا . ولكن الفينيقيين اشتهروا بمهارتهم فى الاعمال النحاسية والبرونزية والمعادن النفيسة حيث كانوا يستجلبون النحاس من قبرص وبعض البلاد الاسيوية ، والذهب والفضة من أثيوبيا وربما من آسيا الصغرى . وقد كان الطلب على هذه المعادن وكذلك القصدير كبيرا ولذلك سعى الفينيقيون للحصول عليها اينما كانت متوفرة . ورغم انه لم يعثر على بقايا معامل المعادن للآن فى المواضيع الا انه ربما يعثر عليها فى المستقبل . وذلك لأن ذكر مصاهر الحديد والنحاس يرد فى نقوش العمران الجنائزية كما تظهر عليها صور المطارق والمقابض وأدوات أخرى مماثلة كما ان هناك اشارات فى كثير من الكتب القديمة على مهارة هؤلاء العمال الفينيقيين فى هذا المجال . [٤٢] وكذلك وجدت بعض الادوات المعدنية ومن أبرزها ـــ من الناحية الفنية والمهارية ـــ تلك الاوانى المعدنية المزخرفة والتى تنتمى للقرن السابع ق.م والتى عثر عليها فى « قبرص » و « إترووريا » فى ايطاليا و « نمرود » وفى اليونان . وقد امتاز الفينيقيون فى صنع وتصميم أدوات الزينة المعدنية خاصة من الفضة والذهب ، ونجد أنواعا من العقود والاقراط والقلائد والاساور ليس فى « فينيقيا » و « قبرص » فحسب بل فى « قرطاجة » ، و « سردينيا » . اما أدوات الزينة الذهبية التى وجدت فى اسبانيا فقد ظهر بأنها من صنع فنيين محليين تأثروا بالفينيقيين . [٤٣] كما وجدت الاوانى والأدوات الفخارية وباعداد كبيرة فى كثير من الأماكن الفينيقية .

صناعة الزجاج وصقله :

عرف الفينيقيون صناعة الزجاج منذ وقت مبكر وبرعوا فيها لدرجة ان « بلينى » كان يعتقد بأن الزجاج قد تم اختراعه فى « فينيقيا » . واذا كان ذلك صحيحا فلا بد ان نشير الى ما يسمى بـ Gore-made glass أو الزجاج الذى كان يصنع عن طريق النفخ والذى اخترع حوالى الألف الاولى قبل الميلاد . وقد وجدت انواع من المصنوعات الزجاجية فى المواقع الفينيقية مثل القلائد والقمائم والجعل ويعتقد بأنها فينيقية الصنع . [٤٤]

وقد عرفت صناعة الزجاج أيضا فى بلاد الرافدين ومصر ، ولكن زجاج هذين البلدين كان يختلف من حيث الشكل والتفاصيل عن الزجاج الذى كان معروفا ومتداولا فى منطقة

البحر الابيض المتوسط . وحتى فى مصر فان هذا النوع من الزجاج لم يكن معروفا فى الألف الاولى ق.م الا فى منطقة الدلتا ولذلك يمكن أن ينسب هذا الزجاج الى الساحل السورى أى « فينيقيا » أو جزيرة « رودس » . وفى الوقت الحاضر لا نستطيع أن نفصل فى ذلك .. والى أن يبت فى هذا الموضوع فهناك قول « بلينى » المشار اليه بأن الزجاج من اختراع الفينيقيين

أما الزجاج البارد Cold-cut glass فقد كان من اختصاص الاشوريين الذين كانوا يستخدمونه فى قصورهم منذ القرن الثامن ق.م وشاع استخدامه عند الفرس بعد ذلك بثلاثة قرون ، ولكن هناك اختلافا فى الشكل . وبعض الزجاج الذى وجد فى اسبانيا يحمل الشكل الفينيقى الخالص الذى نجده فى الادوات المعدنية والخزفية .

الملامح الاخرى للحضارة الفينيقية :

على الرغم من أن الحضارة الفينيقية هى اساس حضارة سامية الا أن لها ملامح مميزة تظهر واضحة فى دينهم وفنهم وأدبهم .

الدين :

وعمل الفينيقيون الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط اثناء العصر البرونزى عندما كانت الزراعة تمثل المصدر الرئيسي للمعيشة . وكان دينهم يتعلق أساسا بالقوى الطبيعية وعملياتها الغامضة التى كانت تمنحهم النبات والحيوان لاطعامهم . وكانت آلهتهم آلهة اخصاب لها ارتباط بالاشجار والحقول والانهار والينابيع وتتم عبادتهم أحيانا فى معابد ولكن فى الغالب الاعم فوق التلال . وكانت كل مدينة تطلق على رئيس الهتها اسم ب بعل» (بمعنى مالك او سيد) وعلى رفيقته اسم « بعله » (بمعنى عشيقة) وكانت عبادتهما تتم سويا . وقد اكتسب « ملكارت » « بعل » مدينة « صور » شعبية كبيرة عندما أخذت المدينة تتفوق وتزدهر . أما رئيس الهة مدينة « اوغاريت Ugarit » » فكان يعرف بـ « أل El «» ورفيقته باسم « آلات Elat » » ، وكان له ابن يدعى « عليان Aliyan » » وابنة باسم « عشترت Ashtart » » .

أما طقوس عبادة الاخصاب فكانت تتضمن البكاء على موت الهة النبات فى الصيف والدعاء له لكى يتغلب على عدوه (الهة الموت Mot) ، ثم الاحتفال ابتهاجا بعودة الحياة للآلهة فى فصل الربيع . أما عبادة الاخصاب لـ « تموز » (ادونيس) و « عشتار » التى كانت تأخذ « بيبلوس » مركزا لها ، فقد انتشرت الى « قبرص » و « اليونان » والعالم الرومانى . و « عشتار » هى بعلة مدينة « بيبلوس » . ومن الطقوس الاخرى التى كانت تمارس حول معبد « عشتار » ما يسمى بالدعارة المقدسة وكذلك قتل الاطفال حديثى الولادة . (٢٥)

الفنون :

يعكس الفن الفينيقي نفس تلك السمات التى تميز بها فن المرحلة الاخيرة من العصر البرونزى فى كونه مؤلفا من عناصر مستمدة من مصادر مختلفة وفى محاولته للتوفيق بين المعتقدات (الدينية) المتعارضة . وكما تحمل الفنون الفينيقية طابع الاقطار التى كانت تتاجر معها فانها أيضا تركت أثرها وطابعها على فنون هذه البلاد . ومثلا نجد النفوذ المصرى ظاهرا فى النقوش العاجية والمجوهرات فى حين أن الأوعية المعدنية المنقوشة تعكس نفوذ بلاد ما بين النهرين والاناضول . ولكن هذا لا يعنى ان الفينيقيين كانوا مقلدين فقط ، فقد تجلت عبقريتهم واصالتهم فى الاسلوب الجديد والاضافات التى جادت بها قرائح الحرفيين وكانت نتيجتها تلك الاعمال الفنية الرائعة التى تميزوا بها . فقد برع الحرفيون الفينيقيون فى اعمال البرونز والنحاس ووصلوا بصناعة الزجاج والعاج الى آفاق جديدة ومستوى رفيع . أما فى الاعمال المعدنية فلم يكن لهم نظير ، وفوق هذا فقد اشتهروا بأنهم أول من قاموا بزخرفة اوانى الزينة (الزهريات) المعدنية بالزهور الصناعية . وقد تأثر الفن الاغريقي بالفن الفينيقي .

ولقد برع الفينيقيون فى نحت العاج الذى كان شائعا فى « فينيقيا » وسوريا وكذلك فى « قرطاجة » وقد كان الفينيقيون يستوردون سن الفيل من الهند (وبلاد بنت) عبر البحر الاحمر بعد ان نفذ المورد السورى ، فى حين ان القرطاجيين كانوا يستوردون ما يحتاجون اليه من العاج من الاقاليم الجنوبية ومن المزارع الخاصة لتربية الافيال التى أنشئت فى شمال افريقيا (لغرض تمويل الجيش بالافيال للأغراض الحربية) . وكان العاج المنقوش يستخدم فى زخرفة أو تطعيم الاثاثات المنزلية وعمل التماثيل والادوات الصغيرة مثل الامشاط والصناديق الصغيرة وأدوات الزينة ودبابيس الشعر . وكانت التجارة فى هذه الادوات العاجية رائجة جدا . أما الادوات المصنوعة من العظم كانت عادة تستخدم فى تزيين الصناديق الخشبية وادوات الزينة مثل اوعية المرهم وكذلك للتمائم والاختام .

وقد حفظ الفينيقيون التراث الفنى لعصر البرونز من الضياع فى العصور المظلمة ونقلوها للغرب ، ونحن مدينون لهم بمعرفتنا الحالية عن انتاجات المراكز الحضارية التى سادت فى تلك الفترة . وبواسطتهم انتشرت الاشكال الحيوانية Moties الايرانية والاسكانية فى اقليم البحر الابيض المتوسط واصبحت تقلد بواسطة اليونانيين والايطاليين .

أما عن أدبهم فقد سبقت الاشارة الى اختراعهم للحروف الأبجدية ، أما باقى اعمالهم الأدبية فقد اندثرت الا النذر اليسير منها .

ولان الزراعة كانت تمثل — خاصة فى قرطاجة — قطاعا اقتصاديا مهما عند الفينيقيين فقد اهتم الفينيقيون بالرى وتمرسوا فى هذا الفن قبل ١٥٠٠ ق.م وربما ساعد هؤلاء فى انتشار فن الرى حول الشواطىء الجنوبية للبحر الابيض المتوسط وذلك من خلال رحلاتهم التجارية ومستعمراتهم التى اقيمت هناك .

الخلاصة :

الفينيقيون أمة بحرية عاشت على ساحل البحر الابيض المتوسط الشرقى منذ القرن الرابع عشر ق.م وقد عرفت بالكنعانيين واطلق اليونانيون على الكنعانيين اسم الفينيقيين من Phoenix الذى يدل على اللون الاحمر .

وقد دفعت الظروف الجغرافية الفينيقيين الى الاتجاه نحو البحر الابيض المتوسط حيث نشأت المدن الفينيقية على ساحله وكانت كل مدينة بمثابة دولة وكانت هذه المدن تتحد احيانا فيما بينها مكونة اتحادا فيدراليا تحت زعامة احدى المدن القوية . وفى فترة استقلال فينيقيا من النفوذ الاجنبى توسعت اقليميا وانشأت مستعمرات عديدة فى حوض البحر الابيض منها « قرطاجة » .

ولقد أسهم الفينيقيون اسهامات حضارية كبيرة ، أهمها على الاطلاق ابتكار نظام الابجدية السائد الآن ، ونبوغهم فى فنون الملاحة البحرية حيث أبحروا فى المحيط الاطلسي ، واستعانوا بالنجم القطبي فى اسفارهم ليلا وداروا حول افريقيا وعرفوا ساحلها الغربى . كما اشتهروا بمهارتهم التجارية حيث وضعوا قانونا للمعاملات التجارية كما تفوقوا فى بعض الصناعات كصناعة السفن وصناعة الزجاج والاصباغ والاقمشة وصناعة ادوات الزينة العاجية والذهبية .